ورقة بحثية

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

من الإبادة الجماعية للأرمن إلى الفرمان الأخير ما الدروس التي يجب أن نتعلمها من استمرارية الفظائع الجماعية؟

سعد سلوم

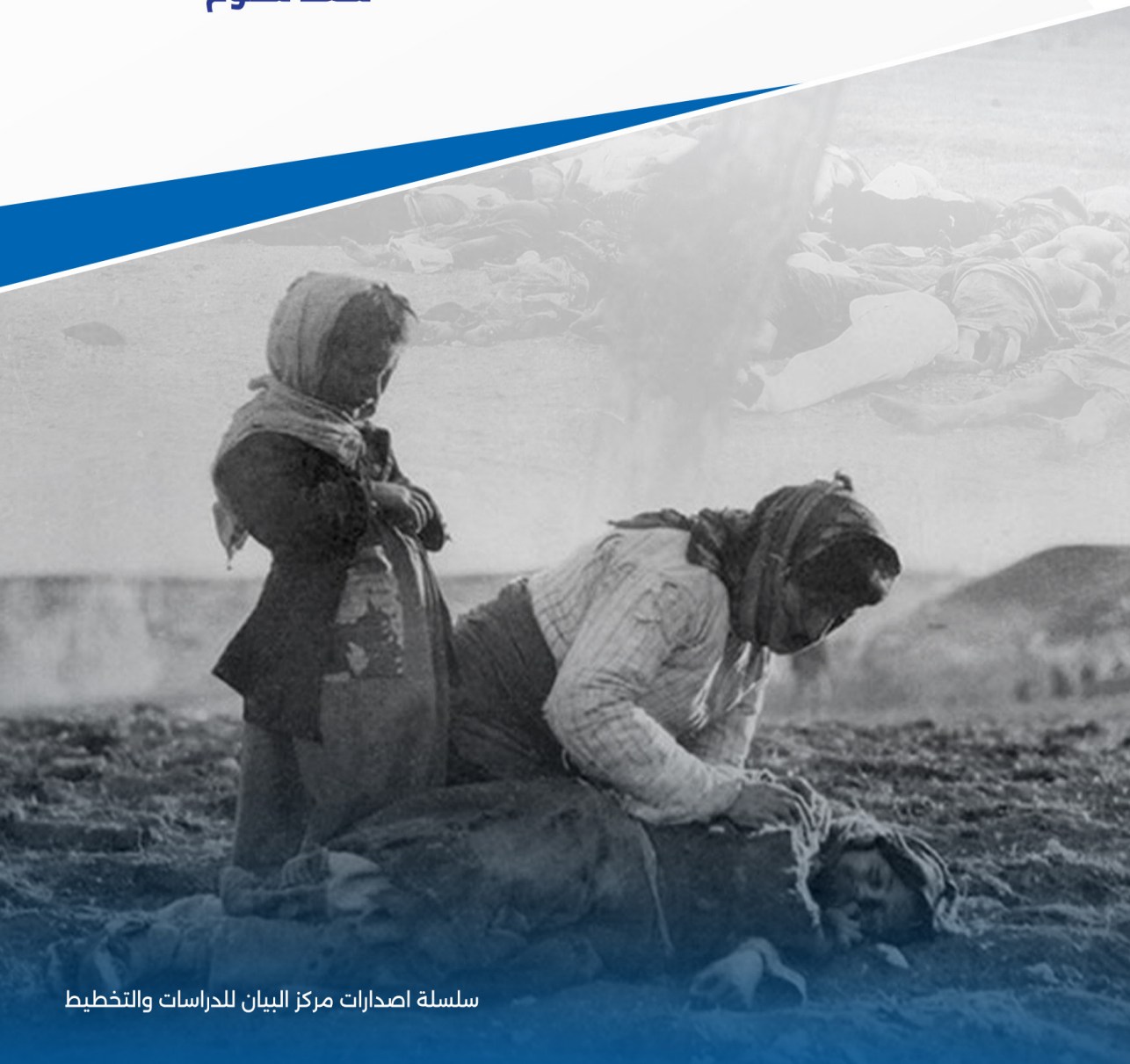

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

من الإبادة الجماعية للأرمن إلى الفرمان الأخير
ما الدروس التي يجب أن نتعلمها من استمرارية الفظائع الجماعية؟

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط / قسم الابحاث / الدراسات الاجتماعية

الاصدار / ورقة بحثية

الموضوع / التعليم والمجتمع، السياسة الداخلية والخارجية، شؤون اقليمية ودولية

سعد سلوم / أستاذ العلاقات الدولية في كلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌ، غيرُ ربحيٍّ، مقرُّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ، ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليلٍ مستقلٍّ، وإيجاد حلول عملية جليّة لقضايا معقدة تهمُّ الحقليْنِ السياسي والأكاديمي.

ملحوظة:

لا تعبّر الآراء الواردة في المقال بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وإنّما تعبّر عن رأي كتابِها.

حقوق النشر محفوظة © 2024

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org
Since 2014

برزت مخاوف في بلدان الشرق الأوسط من إزاحة الأزمة الجيوسياسيَّة في أوكرانيا 2022 والحرب في غزة 2024-2025، و فوز الرئيس الأميركي ترامب برئاسة الولايات المتحدة، اهتمام المجتمع الدوليّ عن شواغلهم وتحدياتهم.

يمكن الإشارة الى السياق الإيزيدي في العراق حيث يشعر أفراد هذه الأقلية بالإهمال والعزلة بعد مرور أكثر من عشر سنوات على الإبادة الجماعية في صيف عام 2014. بالمثل هناك مخاوف أرمنيَّة من أنَّ قضيَّة الإبادة الجماعيَّة للآرمن، والتي تصاعد الاهتمام الدوليّ بها على نحو غير مسبوق منذ إحياء الذكرى المئوية عامّ 2015 سوف تتراجع إلى كواليس المسرح الدوليّ.

ففي 24 نيسان 2015، أحيا الملايين في العديد من أنحاء العالم الذكرى المئوية لمقتل أكثر من مليون أرمني. وأصبحت كلٌّ من السردية التركيَّة والأرمنيَّة موضع جدل ساخن، ففي حين يعيد الأرمن إحياء ذكرى الإبادة الجماعيَّة التي ارتكبتها الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. تفسِّر تركيا الحدث أنَّه مجرد عارض للحرب كان فيه الضحايا عرضًا جانبيًا مؤسفًا لحرب أهليَّة شرسة، ولا تزال تركيا حتّى يومنا هذا ترفض الإعتراف بالأحداث على أنَّها تشكِّل إبادة جماعيَّة.

أصبحت هاتان السرديتان موضع انقسام متزايد خلال السنوات الماضية، ومع إنَّ برلمانات أوربيَّة وحتّى عربيَّة صوتت للاعتراف بالإبادة الجماعيَّة، لكن العديد من الدِّول (من ضمنها الدِّول الكبرى) أغفلت القضية خوفًا من تنفير حليفهما في الناتو بالنسبة لدِّول الغرب الأطلسي أو لإعتبارات ثقافيَّة وتأريخيَّة بالنسبة لبعض البلدان العربيَّة والإسلاميّة.

بالنسبة للباحثين والنخب الأكاديمية في العديد من بلدان الشرق الأوسط فإنَّ استخلاص الدروس من قضيَّة الإعتراف الدوليّ بالإبادة الجماعيَّة يعدُّ أمرًا محفزًا لقراءة الحاضر في ضوء تعقيدات الماضي، فدراسة الشتات الأرمنيّ قد تصبح مرجعيَّة لدراسة الشتات العراقيّ والسوريّ واللبناني على سبيل المثال.

دروس من الإبادة الجماعية

طوّر الشتات الأرمنيّ في جميع أنحاء العالم مراكز اجتماعيَّة وسياسيَّة وثقافيَّة وأيديولوجيَّة وكنسية ديناميكية. وأعادوا تموضعهم الخطابي والوجودي داخل العديد من بلدان الشرق الأوسط المستقلّة حديثًا مثل العراق وسوريا ولبنان ومصر، كما في بلدان الشتات الأوربي والولايات المتّحدة. وتوضّح عملية كتابة تأريخ جديد للأرمن في فترة ما بعد الإبادة الجماعيَّة أنَّه لم يكن تأريخًا من الضياع والغياب والتشتت.

بالمثل يمكن لنا أنْ نبدأ بتدوين تأريخ الشتات الشرق أوسطي في العالم بوصفه كذلك أيضًا. هذا درس أوّل نتعلمه. من جهة ثانية، كانت التحوّلات الجيوسياسيَّة بعد الربيع العربيّ وظهور داعش محفّزة لقراءة التأريخ في ضوء أطروحة الاستمرارية، أيّ قراءته خارج التحديد الحدثي وضرورة سحبه إلى منطق الزمن البنيوي أو الأمد الطويل إذا استخدمنا منهج المؤرّخ الفرنسي (بروديل) في كتابه العظيم: (البحر المتوسط).

بعبارة أخرى فإن بحث التحولات الاجتماعية التي أحدثها تدمير العراق وسوريا على سبيل المثال وتأثيرها على حياة الأرمن في كلا البلدين يبين أن تأثير الإبادة الجماعية للارمن ما يزال مستمرا على الرغم من مرور أكثر من قرن على الإبادة الجماعية.

بدأ العديد من ممثّلي الأقليات الدِّينيَّة التي تعرضت إلى تطهير عرّقي وإبادة جماعيَّة على يد تنظيم داعش ينظرون إلى مأساتهم المعاصرة على أنَّها ذات صلة مباشرة بالماضي وتعيد إنتاج الذكريات المرتبطة بالإبادة الجماعيَّة للأرمن (الإيزيديون في سنجار والمسيحيون في سهل نينوى مثلًا)، وكذلك على الجانب الآخر من الحدود في سوريا، بدأ العديد من السوريين الأرمن وممثّلي الأقليات الدِّينيَّة السوريَّة يفسِّرون التورط المعاصر لتركيا في الحرب السوريَّة على أنَّه محاولة للسيطرة على الوجود الأرمنيّ في سوريا وعلى خريطة أقليات أخرى كانت في زمن مضى تحت النفوذ العثمانيّ.

يضرب الأرمن السوريّون أمثلة أكثر مباشرة مثل قصف المواقع التَّأريخيَّة الأرمنيَّة خلال إحياء ذكرى 24 نيسان في مدينة دير الزور شرقي سوريا، والتحوّل من تدمير الثَّقافة المادية للأرمن السوريّين إلى محاولة تدمير

المجتمع الأرمنيّ في حلب الحضرية تترك أكثر من دلالة عميقة على الاستمرارية. هذا درس ثان.

النقطة الثالثة التي يمكن ملاحظتها أو قياسها عبر الأمد الزمني الطويل هي كيفية تعامل الأجيال المختلفة مع قضيَّة الإبادة الجماعيَّة منذ عشرينيات القرن الماضي حتّى فشل البروتوكولات التي وقَّعتها أرمينيا وتركيا المستقلّة في عامّ 2010. من يقرأ تأريخ الانقسامات والخلافات بين أرمن الشتات المؤيدين والمعارضين للاتحاد السوفيتي قبل وخلال الحرب الباردة، والتي وصلت ذروتها إلى أعمال عنف توّجت بمقتل رئيس أساقفة في عامّ 1933 تدقُّ ناقوس الخطر على مجتمعات ما بعد الإبادة الجماعيَّة في العراق وسوريا وضرورة العمل على إعادة تأهيل مجتمع ما بعد الإبادة وعدّم تركه نهبًا لتوظيف سياسيّ داخلي أو اقليمي أو دوليّ.

على النخب والأجيال الجديدة التي تمثِّل مجتمعات ما بعد الإبادة الجماعيَّة التحلي بالشعور بالمسؤولية ومناهضة إضفاء طابع انقسامي على الخطاب أو سياسة إنتاج أو إعادة إنتاج الهويَّة أو الاستسلام للأجندات السِّياسيَّة للصراع الجيوسياسيّ بين دول الأقليم أو بين الولايات المتّحدة وإيران وتركيا من جهة ثانية.

عدا هذه المخاوف التي تترك لنا فيها إبادة الأرمن درسًا بليغًا فإنَّ معظم مخاوفنا مبالغ بها حين نتحدث عن انقراض الثّقافات أو اختفاء الجماعات، لنضرب مثالًا آخر في السيّاق الأرمنيّ في إحياء مذهل للتأريّخ الشفوي، بدأ أحفاد عشرات الآلاف من "الأرمن الإسلاميّين"، الذين ظلّوا في الظلِّ منذ عامّ 1915، في الظهور واستعادة هويّاتهم. وهذا درس ثالث.

النقطة الرابعة التي أود إثارتها تتعلق بالإنكار، لا تزال الدَّولة التركيَّة تنفي حدوث الإبادة الجماعيَّة رسميًّا. في كتابها (إنكار العنف: الماضي العثماني، والحاضر التركيّ، والعنف الجماعيّ ضدّ الأرمن، 1789– 2009) تسعى الباحثة (فاطمة موج جوتشيك) إلى فكِّ جذور التنصل التركيّ من الإبادة الجماعيَّة. جادلت الباحثة في كتابها بأنَّ الإنكار يمثِّل عملية تأريخيَّة متعددة الطبقات تتكون من أربعة مكونات

متميّزة ولكنَّها متداخلة: العناصر الهيكلية للعنف الجماعيّ والحداثة في جانب واحد، والعناصر العاطفية للعواطف الجماعيَّة وإضفاء الشّرعيَّة على الأحداث من ناحية أخرى. في الحالة التركيَّة، ظهر الإنكار من خلال أربع مراحل: (1) الإنكار الإمبراطوريّ الأوّلي لأصول العنف الجماعيّ المرتكب ضدّ الأرمن والذي بدأ عامّ 1789 واستمرَّ حتّى عامّ 1907 ؛ (2) إنكار الفتاة التركيَّة لأعمال العنف التي استمرَّت لعقد من عامّ 1908 إلى عامّ 1918 ؛ (3) حدث الإنكار الجمهوريّ المبكّر لممثّلي العنف من عامّ 1919 إلى عامّ 1973 ؛ (4) بدأ الإنكار الجمهوريّ الراحل للمسؤولية عن العنف الجماعيّ في عامّ 1974 ولا يزال مستمرًّا حتّى اليوم. ولكن ما قد لا تراه الباحثة فاطمة وغيرها من المتشائمين أنَّ ما يغيّر التأريخ لا نلاحظه على سطح الأحداث، إنَّما في أعمق ذاكرة الشعوب، وإنَّ العدالة ستتحقق في النهاية حتّى لو تأخرت أكثر من مئة عامّ.

ختامًا فإنَّ تطور الإعتراف بالإبادة الجماعيَّة يصبح مرآة لأهمِّيَّة وفعّاليَّة عدّم النسيان بالرغم من كلِّ ديناميات الإنكار والمصالح الدوليَّة، فقد اعترفت أكثر من ثلاثين دولة رسميًّا بالإبادة الجماعيَّة للأرمن، فضلًا عن إنَّ هناك دولًا تعدّت هذا إلى تبني تشريعات تنصُّ على تجريم إنكار الإبادة الأرمنيَّة، كما إنَّ عدد الدول التي اعترفت بالإبادة في تزايد عامًّا بعد آخر، ففي العام الماضي اعترفت مجلس نواب جمهوريَّة لاتفيا بالإبادة وكذلك اعترف الرئيس الأمريكيّ (جو بايدن) بصورة رسميَّة واستخدم كلمة الإبادة خلال كلمته التي وجَّهها إلى الشعب الأرمنيّ، وكذلك لبنان وسوريا ضمن الدِّول العربيَّة التي اعترفت بالإبادة، ومع إنَّ العلاقات العراقيَّة الأرمنيَّة في تطور مستمرٍ فإنَّ الحكومة الأرمنيَّة لم تتعمد إثارة قضيَّة اعتراف العراق بالإبادة الجماعيَّة للأرمن كشرط لاقامة هذه العلاقات وتطويرها، لكن من جهة ثانية تبرز مطالب من قبل أرمن العراق للإعتراف في هذا السيّاق.

العلاقات العراقية –الأرمنية

وحسب مصادر أرمنيَّة رسميَّة فإنَّ هناك قدرًا من الارتياح من قبل الجانب الأرمنيّ لدعم واحترام الأرمن العراقيين في البلاد، ولا سيَّما دعم الحكومة العراقيَّة وحكومة إقليم كوردستان العراق لتشييد وزيادة الكنائس الأرمنيَّة (مثل تشييد كنيسة القديس ساركيس في دهوك عامّ 2009 وتشييد كنيسة الصليب المقدَّس في أربيل عامّ 2019). وهناك–حسب هذه المصادر– مستوى عال من الحوار السِّياسيّ بين البلدين، فضلًا عن الوصول إلى تطورات إيجابيَّة في مجال التعاون الاقتصادي والتجاري، ففي السنوات الأخيرة أصبح من الممكن تحقيق مؤشِّرات تجارية واقتصادية جيدة. وشهد عامّ 2020 بداية مهمَّة للتعاون بين الجامعات بين البلدين، وتمَّ توقيع مذكرة تفاهم بين جامعة يريفان الحكوميَّة وجامعة دهوك والمتضمنة مجالات التعاون المتعددة.

وما تزال أرمينيا وجهة سياحية للعراقيين، وقد زار رئيس جمهورية ارمينيا السيد فاهاكن خاجادوريان العراق مع وفد من رجال الأعمال في شباط 2024، وقد التقيته شخصيا في قصر الضيافة ببغداد. وشهدت زيارته الى كاتدرائية القديس كريكور المنور في بغداد بتاريخ 2024-2-27. وكان في استقباله رئيس طائفة الأرمن الأرثوذكس في العراق نيافة المطران اوشاكان كولكوليان ورئيس الطائفة السابق الدكتور افاك اسادوريان واعضاء اللجنة الادارية المركزية.

وشهدت احياء الذكرى المئوية للإبادة الجماعية للأرمن اهتماما واسعا في العراق، على خلفية فظائع داعش، ففي عام 2015 ذهبت برفقة الوفد الأرمني رفيع المستوى برئاسة المطران ''آفاك اسادوريان'' لزيارة آيات الله في النجف الأشرف، وقد خضنا نقاشًا لاهوتيًّا وتأريخيًّا عن دلالات الإبادة وموقف الشّريعة الإسلاميّة منها في ذكراها المائة.

استضافنا في اليوم التالي (كرسي اليونسكو لحوار الأديان) في جامعة الكوفة، ووفَّر ذلك فرصة لا تعوّض للحديث عن تحويل إحياء الذكرى إلى قوّة للتذكر الخلّاق، وقد حاولت في النقاش أنْ أطرح سؤالًا جوهريًا حول كيفية تحويل إحياء ذكرى الإبادة الأرمنيَّة إلى مناسبة لإطلاق مراجعة لطرق تفكيرنا وإصلاح مناهجنا التعليمية، ولإطلاق تحالف دوليّ جديد ''تحالف الضحايا'' أو ''تحالف الناجين'' في مواجهة المصالح الدوليّة المتنافسة لتقسيم بلادنا ونخب البزنس الإثنوطائفي من حولنا. تحالف من شأنه أنْ يحسّن ردَّ فعلنا على الإبادة المقبلة. ومن ثمَّ نجعل لقيمة التذكر معنى يقع داخل السيّاق المحليّ العراقيّ من جهة ويضع إحياء ذكرى الإبادة الأرمنيَّة في إطارها الإنسانيّ المناسب، فنحن ''نتذكر ونطالب'' لكي لا يحدث هذا لشعوب أخرى، ولكي لا يحدث لنا في العراق مرَّة ثانية.

الإبادة الجماعية المنهجية الأولى

تحدث الإبادة الجماعيَّة منذ أقدم التواريخ المسجَّلة، وغالبًا ما كانت هناك إبادات تبرِّر على أساس دينيّ لكنّنا لا نجد لها صلة بما يحدث اليوم، وغالبًا ما يصاب المسيحيون بصدمة لقراءة أنَّ الربَّ إله إسرائيل، أمر بالتدمير الكامل (القضاء على جميع الرجال والنساء والأطفال) من جماعة عرّقيَّة تعرف باسم الكنعانيين. في الواقع لا يحتاج الناس إلى دوافع دينيَّة لارتكاب الإبادة، سواء تحدثنا عن إبادة الكنعانيين التي يصوّرها سفر يشوع، مرورًا بالإبادة الرومانية بقرطاج، وانتهاء بالتطهير العرّقي وإبادة السكان على يد مقاتلي داعش.

لكن بدء من ''إبادة الأرمن'' أصبحت عمليات الإبادة الجماعيَّة أكثر اتساعًا، وأكثر انتظامًا، وأكثر دقة، وهي تمثِّل تتويجًا للعنف الواسع النطاق الذي ميَّز القرن العشرين. تكشف الإبادة الجماعيَّة عن عمق الأزمة الثَّقافيّة التي تنخر عالمنا المعاصر، مثيرة مخاوفًا عميقة عن عالم مرعب نعيش فيه يقع فيه المدنيون ضحايا لحسابات ضيِّقة تصنّف فيه الشعوب إلى مراتب.

لم يستثنِ هذا التصنيف شعبًا من الشعوب على أسس قوميَّة، دينيَّة، مذهبيَّة، فكريَّة أو... كما أنَّ جميع أنواع الأنظمة ارتكبت جرائم الإبادة الجماعيَّة: الأوروبيون منذ القرن الخامس عشر إلى التاسع عشر عملوا على إبادة السكان الأصليين في أستراليا وأميركا الشمالية، وفي العقد الأوّل من القرن العشرين قامت الدَّولة الألمانية بارتكاب الإبادة الجماعيَّة للهيريرو في جنوب غرب أفريقيا، والقائمة تطول، ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتي لا سيَّما عمليات التطهير العرّقية والقوميَّة التي بدأت في عهد ستالين، وكمبوديا تحت حكم الخمير الحمر، ويوغوسلافيا السابقة ورواندا ودارفور وانتهاء بإبادة الايزيديين في جبل سنجار شمال العراق.

قواسم مشتركة للإبادات الجماعية

لكن برغم الخصوصية التي تميّز كلّ حالة إبادة، فإنَّ هناك قواسم مشتركة مهَّدت لممارسة الإبادة الجماعيَّة، منها أنَّ جميع هذه الحركات والأنظمة المسؤولة عن الإبادة كان لها تصور بيوريتاني عن الهويَّة، وسعت للدفاع عن فكرة هويَّة خالصة لشعب نقي أو طبقة نقيَّة أو جماعة صافية، فكرة الشعب المختار التوراتية، ألف عامّ من التأريّخ يقودها الآريون مثلًا، هويَّة تركيَّة صافية، وبالمثل وبإسم هويَّة عروبيَّة خالصة تمَّ ارتكاب إبادات في العراق، وفي مثل هذه الإبادات ينفتح الباب على انضمام شركاء من أجلِ إنجاز هذا الهدف، وتواطأت النخب التقليدية في ألمانيا في ممارسات التأريّخ الثالث وتحوّل كثير من الناس العاديين إلى قتلة، وبالمثل نتحدث عن قصص مقارنة في تأريّخ الإبادات في القرن العشرين.

كذلك فعل السوفييت، من خلال اليوتوبيا التي قدَّموها عن مستقبل قائم على المساواة بين جميع الشعوب، وتمَّ بناء على هذا تجريد الناس من ملكياتهم، وانتزعت المصانع والعقارات من أيدي الرأسماليين والأرستقراطيين، ودمَّر السوفييت قوّة النخب القديمة ممهّدين لتحوّل قسري في البنية الاجتماعيَّة، ومن بعدهم تبنى الخمير الحمر الفكرة ذاتها للسِّياسات الشيوعية الصينية، وكانت يوتوبيا القوميين الصرب دولة صافية من أيَّة عناصر ''أجنبية دخلية'' من أجلِ إنشاء صربيا الكبرى التي يمكن في ظلِّها أنْ ينعم الشعب الصربي بالازدهار.

اشتركت هذه الحركات والأنظمة في تصميمها على إعادة تشكيل جذري للمجتمعات والدِّول وفي ظلِّ مسعاها الشامل لتأسيس هويَّة جماعيَّة قاتلة، فأعادوا تشكيل الوعي الفردي، وفي الطريق إلى ذلك نفَّذوا تصفيات لعدد كبير من السكان وتطهير قطّاعات كبيرة من الناس، وصنف الناس بناء على خلفية الطبقة الاجتماعيَّة والتوجه السِّياسيّ، ولكن طالما انطوت الإبادات على عمليات الترحيل القسري وقتل الناس بناء على تصنيف إثني يعتمد على العرق والأمَّة.

تصنيف يجعل الإنسان الذي لا يتطابق مع هويّتي الجماعيَّة ''آخر'' بكلِّ ما يثيره هذا المصطلح من خوف من المختلف وشيطنة له، وما يثيره من رغبة في تطهير يهدف إلى ''نقاء'' يصبح فيه الآخر المختلف غير نظيف ونجس، لذا لا بدَّ من حجره صحيًا؛ خوفًا من تلوث النقاء الأسطوري المفترض، ومن ثمَّ الانتقال بعد الحجر إلى تطهيره أو استئصاله.

وقد تضمن خطاب بيولوجيا الإبادة قاموًسا من مصطلحات لغة مشحونة بتنظيف المجتمع، والوقاية الاجتماعيَّة والتطهير ضدَّ المشتبه بهم وترحيل الجماعات العرّقيَّة والوطنيَّة المشكوك بولائها أو اتخاذ إجراءات أكثر قسوة ضدَّ الطفيليات الاجتماعيَّة أو الحشرات أو ''الصراصير'' كما كان يطلق في رواندا على الضحايا. وبالمثل تستخدم اليوم في بلادنا مصطلحات تمييزية تحطُّ من شأن الآخر وتشجّع على ممارسة العنف ضدَّه وتبرّرها، وتهيئ المناخ اللازم لارتكاب إبادات. واعتقد أنَّنا يجب أنْ نتعلم من دروس الإبادات السابقة عن النُذر المحتملة التي قد تؤدي إلى الإبادة الجماعيَّة المقبلة، وأنْ نتعلم من درس الصمت والنسيان.

استمرارية الإبادة الجماعية

شهد القرن العشرين استهداف جماعات إثنية ودينيَّة بالإبادة الجماعيَّة، وكان من شأن مرور ''إبادة الأرمن'' دون إدانة أنْ يشكِّل عاملًا محفزًا لتكرار فظاعات أخرى في بقع مختلفة من العالم، فالنظام النازي ركن إلى ثقة مفرطة بالنسيان الجماعيّ لكي يمارس إبادته ليهود أوروبا خلال سنوات الحرب العالمية الثانية فيما يعرف لاحقًا بالهولوكوست، فـ ''من يتذكر مجزرة الأرمن'' على حدِّ قول هتلر يوضِّح الجريمة الأخرى التي تعرض لها الأرمن، جريمة الصمت من قبل الضمير العالمي والنسيان الجماعيّ وفقدان الذاكرة العمدي.

لكن بعد الهولوكوست أصبحت الحاجة إلى منع الإبادة الجماعيَّة ومعاقبة مرتكبيها موضع اهتمام المجتمع الدوليّ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. إلَّا أنَّ هذا لم يمنع من حصول المجازر في كمبوديا في سبعينات القرن الماضي، قبل أنْ يستفيق العالم المعاصر على مجازر تسعينات القرن الماضي في رواندا بعد أنْ دفع مليون ضحية ثمن هذه الاستفاقة المتأخرة، تلاها ما حصل من فظاعات بين ظهراني الأمم المتمدنة في أوروبا على طول البوسنة والهرسك وكوسوفو.

وبعد أنْ جاء القرن الحادي والعشرين بوعود وآمال كاذبة جديدة دشنت ''دارفور'' قصَّة أخرى في القارة السمراء المبتلاة بالحروب الأهليَّة وسيرورات العنف الدامي، وفي صيف عامّ 2014 الهادئ تعالى صراخ آخر من على سفوح جبل سنجار شمال غرب الموصل في استهداف الأيزيديين واقتلاعهم مع المسيحيين وبقية الأقليات من شبك وتركمان وكاكائيين من مواطنهم وأراضيهم وذكرياتهم في الموصل وسهل نينوى.

قرن من الزمن مرَّ على حدث مؤسس لفظاعة الإبادة الجماعيَّة وفشل تكرر لعقود في وقف إبادات أخرى، ألا يحفِّزنا اليوم على أنْ نجعل من التذكر ''قوّة'' تحوّل دون تكرار السيناريو لشعوب أخرى. أرى أنَّ قيمة التذكر وسط اعتراف دوليّ متزايد بواقعة الإبادة سوف يشكِّل ردًّا على الفشل الجماعيّ في عدمّ منع حدوث إبادات جماعيَّة، وأنْ نجعل منه محاولة للتعلم من الماضي. وقد جمع المستشار الخاصّ المعني بمنع الإبادة الجماعيَّة قائمة بعلامات الإنذار التي تشير إلى تعرض مجتمع من المجتمعات لخطر الإبادة الجماعيَّة

أو الفظائع المشابهة، منها:

– أنْ تكون للبلد حكومة شمولية أو قمعية لا تقبض على زمام السلطة فيها إلَّا جماعة مهيمنة.

– أنْ تكون جماعة أو أكثر من الجماعات الإثنية أو الدِّينيَّة هدفًا للتمييز أو تستخدم كبش فداء لتحميلها مسؤولية الفقر أو غيره من المشاكل الاجتماعيَّة التي تواجه البلد حاليًّا.

– أنْ يوجد اعتقاد أو نظريَّة تقول بأنَّ الجماعة المستهدفة أقلُّ من مستوى البشر، فهي ''تجرد من الإنسانيّة'' أعضاء هذه الجماعة وتبرر ارتكاب العنف ضدهم. وتنشر الرسائل والدعاية التي تدعم هذا الاعتقاد من خلال وسائل الإعلام أو في التجمعات ''تجمعات الكراهية'' و''رسائل الكراهية''.

في رأي ممثل الحكومة الأرمنيَّة، في نقاش في مجلس حقوق الإنسان، فإنَّ إبادة الأرمن قدِّمت مثالًا لأولى عمليات الإبادة الجماعيَّة في القرن العشرين والتي أودت بحياة نحو مليون نسمة، ولا تزال الأمَّة الأرمنيَّة ترزح تحت وطأة تبعاتها البادية للعيان، وتعرضت قبل ردح طويل من الزمن للتمييز على جميع مستويات الحياة العامَّة، بما فيها الحياة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصادية والثَّقافيّة، واضطر أفرادها إلى دفع إتاوات والعيش كمواطنين من الدرجة الثانية، وإلى إعادة توطينهم وعزلهم سياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا كما اضطروا إلى التعرض وغير ذلك من المصاعب الاستثنائية، بل حتّى المذابح.

شكَّل ذلك خلفية تجربة لا تزال حاضرة في الذهن، فهذا الخطاب التذكيري يستحضر ذكرى الإبادة ويعيد تقديمها كمثال تنبغي دراسته لتجنب تكراره في عالمنا المعاصر، وأنَّ عمليات الاستهداف الجماعيَّة غالبًا ما يُخطّط لها بإحكام، فقبل أنْ يشرّع المحرضون على الإبادة الجماعيَّة يشيعون التعصب والكراهية ليهيئوا بذلك البيئة المواتية للعنف؛ ويصنّفوا شرائح من السكان على أنها من الإرهابيين والانفصاليين والمجرمين والخونة.

ولا تزال هناك مؤسسات سياسيَّة تستخدم هذه الممارسات حتّى هذا اليوم على النحو التالي: تشمل

الممارسات إلقاء الخطب التي تحتوي على الكراهية، وإذلال فئة معينة من السكان في وسائل الإعلام، وتشويه سمعة الأفراد المنتمين إلى فئات محددة، وإنكار جرائم الإبادة الجماعيَّة والفظائع المرتكبة في الماضي مشكلة بذلك الركن الآيديولوجيّ لسِّياسة التهميش التي تتبعها الدَّولة، وعادة ما يقترن ذلك بانتهاك الحقوق السِّياسيَّة لفئة معينة (مثل انعدام حرية التعبير والصحافة والتجمع والتهميش السِّياسيّ). وهكذا، فإنَّ هذه النُذر، وإنْ لم تكن شاملة، قد تشكِّل مجموعة معينة من العلامات على المستوى السِّياسيّ.

وترى حكومة أرمينيا أيضًا، في إطار المنطق نفسه، أنَّ مصادرة الممتلكات وتدميرها، والمجاعات التي يصنعها الإنسان، والحرمان من الغذاء أو المرء أو الخدمات الطبيَّة، مثلما بيّن ذلك المستشار الخاصّ، تشكِّل مجموعة من النُذر على الصعيدين الاجتماعيّ والاقتصادي. وبناء على ذلك، فإنَّ تدمير الممتلكات الثَّقافيّة والمواقع الدِّينيَّة وطمس معالم الهويَّة الثَّقافيّة أمور تندرج ضمن نطاق النُذر على المستوى الثَّقافيّ. ولكن هذه الانتهاكات بمجملها بحاجة لأنْ تكون منهجيَّة الطابع ومتواترة من حيث الوقوع لكي تعتبر نُذرًا على حدوث حالة إبادة جماعيَّة.

أتأمل في هذه الصور والأمثلة وأنا أفكر بما حصل في ''العراق'' من إبادة للتنوع الخلَّاق، فما تعرضت له جماعات دينيَّة وقوميَّة مختلفة إلى عمليات تطهير واسعة وابادة جماعيَّة على يد قتلة داعش، ما كان ليحصل على النحو الذي حصل فيه، لو تمَّت قراءة علامات الإبادة بشكل مبكر وطور المجتمع الدوليّ آلية للتدخل الفوري لمنع الإبادة، لا سيَّما وأنَّ مرور ساعة واحدة دون تدخل دوليّ عاجل لإيقاف الإبادة كفيل بالتضحية بأرواح آلاف البشر.

إنَّ ما حصل في العراق من سبي نساء الأقليات وتدمير تراثهم الدِّينيّ وتشريدهم وقتلهم ومصادرة ممتلكاتهم وإجبارهم على تغيير دينهم يعد جريمة إبادة جماعيَّة وفقًا للمادة الثانية من اتفاقيَّة منع جريمة الإبادة الجماعيَّة والمعاقبة لعام 1948، فجميع الأفعال التي تتعرض لها الأقليات في العراق تشكِّل عناصر لجريمة ابادة جماعية، فهي قد اتخذت بقصد التدمير الكلي أو الجزئي للأقليات وتضمنت جميع الأفعال التي يتضمنها تعريف الإبادة الجماعيَّة

وهذا يدفع المرء للتفكير بأنَّ الاستهداف الجماعيّ للتنوع الدِّينيّ والقوميّ واللُّغويّ والذي يجري منذ عقود في ظلِّ صمت دوليّ مطبق ليس في جوهره سوى استمرار للفظائع وسياسة الإبادة الجماعيَّة التي عرفها العالم أوّل مرَّة في استهداف الأرمن، والتي تلتها استهدافات أخرى بسبب سياسة الصمت والإنكار طوال القرن العشرين وبدايات االقرن الحادي والعشرين.

لذا ولكي لا تتعرض إبادة الأرمن للنسيان، أو يستخدم الاعتراف أو الإنكار لأغراض سياسيَّة ولكي لا يتكرر سيناريو المأساة لشعوب أخرى، علينا أنْ نتذكر اليوم هذه الإبادة بوصفها حدثًا مؤسسًا للفظاعة، وأنْ نحوّل ذكراها إلى رسالة للشعوب الأخرى للوقوف ضدَّ الصمت والإنكار وحالة الخدر العقلي والروحي التي تصيب عالمنا المعاصر.

الإبادة الجماعية بين التذكر والذاكرة

في نيسان 2015 ارتفعت شارة الذكرى المئوية للإبادة الأرمنيَّة (زهرة ... لا تنساني) في خلفية مؤتمر دولي أقامه الأرمن العراقيّون في بغداد احتفاءً بالذكرى بالتعاون مع مؤسسة مسارات. ترمز الزهرة إلى الإخلاص وعدّم النسيان، وهما لا يتلازمان مع رمز إحياء الذكرى المئوية فحسب بل هما سمتان تميّزان الشخصيَّة الأرمنيَّة خلال قرن من (عيشها بين) (وتعايشها مع) الآخر العربيّ المسلم. الإخلاص لوطنهم الأم وأوطانهم البديلة في الشتات. وعدّم نسيان الإبادة وفضل الشعوب الأخرى عليهم في الوقت عينه.

ولكن بعد مرور أكثر من مئة عام، هل يمكن أنْ نقدِّم شيئًا جديدًا بشأن الإبادة الأرمنيَّة؟. لقد كتب الكثير من الأدبيات حول الإبادة الأرمنيَّة طوال قرن من الزمن، مقدّمةً كمًّا هائلًا من التفاصيل عن واحدة من أعظم الفظائع التي ارتكبت في القرن العشرين، وفّرت هذه الأدبيات حسابًا رسميًّا للأصول والأحداث وعواقب السنوات 1915 و1916، والدور الذي لعبته الإبادة في بناء الدَّولة القوميَّة التركيَّة

والهويَّة التركيَّة، واستكشفت مختلف جوانب أيديولوجيّات السلطة وسيادة وعنف الدَّولة، ودرست عواقبها والآثار المترتبة على عمليات الترحيل، ومحاولات تقديم المسؤولين الذين ارتكبوا الفظائع، ووفَّر لنا فهمًا لا غنى عنه لحلقة أساسيَّة من تأريخ العنف والإبادة الجماعيَّة في التأريخ.

أثبتت الإبادة الجماعية في العراق عام 2014 وقبلها في يوغوسلافيا ورواندا وتيمور الشرقية ودارفور كيف أنَّ تهديد الإبادة الجماعيَّة لا يزال قضيَّة رئيسية في السِّياسة العالمية، ومع توفر كم جديد من التفسيرات المختلفة للإبادة الجماعيَّة من علم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والعلوم السِّياسيَّة تمَّ تحليل تأثير العنصر أو العرّق أو القوميَّة والجنس على جرائم الإبادة الجماعيَّة.

لذا، اعتقد أنَّنا لا يمكن أنْ نضيف شيئًا إلى ما كتب من قبل، لكن من المهم لنا أنْ نتحدث في سيّاق أكثر عملية وراهنية. بالنسبة ليّ كأكاديمي ينشط في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان وقيم التعدديَّة، وكعضو في لجنة إحياء الذكرى المئوية للإبادة الأرمنيَّة في العراق كنت أركِّز على جوانب أساسيَّة في الاحتفال بالذكرى المئوية أراها ذات صلة بما يحدث في بلدي، وهو ما يجعل لقيمة التذكر معنى يقع داخل السيّاق المحليّ أيضًا.

اعتقد أوّلًا أنَّ علينا عدّم التركيز كثيرًا على الماضي؛ وأنْ نبقى أسرى إلى رماده، بقدر ما نحلِّل قوى الواقع في الحاضر التي تعيد إنتاج أخطاء الماضي وفظاعاته، ومن ثمَّ ننتقل إلى تحليل كيفية استخدام هذا الماضي وكيف يتمُّ تصوره. مثل هذا التحليل كفيل بكشف الهياكل المعرفيَّة للسلطة وكيفية استخدام النخب السِّياسيَّة "سماسرة الهويَّة" الماضي خدمة لإغراضهم.

فمن خلال تحليل الأوضاع الراهنة حول حدث ماض مؤسس للإبادة نستطيع إلقاء ضوء على فهمنا المعاصر للهويَّة والعدالة والتعايش بين الأعراق، وهو ما يشكِّل بالنسبة كشرق أوسطيين سؤالًا جوهريًا يتعلق بمستقبل بلداننا في ضوء انفراط التعدديَّة وتصدع العلاقة بين الدَّولة والمجتمع، وسيرورات الإبادة المرتسمة في سوريا والعراق، وما سيتبعها من إبادات نتيجة فقدان الثقة بين الجماعات الإثنية.

التلاعب السياسي بالذاكرة

علينا أنْ نقف تمامًا ضدَّ أيِّ تلاعب سياسيّ بالذاكرة، فإنَّ أكثر من ستين مليون شخص ضحايا الإبادة الجماعية في القرن العشرين وحده، بما في ذلك الخسائر الأخيرة في البوسنة ورواندا، وبمعزل عن ضحايا دارفور والعراق، فذلك يستحقُّ منا وقفة لمنع تكرار هذا العنف عن طريق رفض أيَّة سياسة لتأويل الماضي تفتح الطريق أمام التصنيف والتمييز، ومن ثمَّ المناخ الملائم لارتكاب الإبادة.

ترتبط المشاعر البدائية العدائية المنطلقة العنان إلى حدٍّ بعيد بطرق التلاعب بالذاكرة، وخلق مستويات أو مظلوميات، مشكلة من ذكريات الألم أو الظلّم الحقيقي أو الوهمي استثمارًا لسِّياسات سماسرة الهويَّة المعاصرين ونخب البزنس الإثنوطائفيّ، وعلى نحو يحفِّز أتباعهم على القتل لتحقيق مكاسب سياسيَّة ومصالح ضيِّقة.

لذا، كنت أرجو أنْ يكون انطلاق إحياء الذكرى المئوية مناسبة لحراك ثقافيّ وفكريّ لتحليل آليات التلاعب بالذاكرة من أجلِ أنْ نفهم كيفية تفجر نوبات التطهير العرّقيّ والقتل الجماعيّ، وبالتالي نكون قادرين على منع وقوعها في المستقبل. الأمر الذي يتطلب منا مراجعات وإصلاحات في طرق تفكيرنا كما في إصلاح مناهجنا التعليمية.

وما دام إحياء الذكرى لا يتمحور على الماضي بقدر ما يهدف إلى إثارة سؤال مستقبليّ حول كيفية منع الإبادة المقبلة، فإنَّنا نأمل ونعمل على أنْ تصبح الذكرى مناسبة للتشجيع على تكاتف دوليّ لمنعها في المستقبل، فشعار الذكرى المئوية ''نتذكر ونطالب'' لا يتعلق بسيّاق أرمني خالص فحسب، بل ينطوي على دعوة إنسانيَّة عالميَّة، أي أنْ ''نتذكر ونطالب كي لا يحدث هذا لشعوب أخرى''.

وفي هذا السيّاق، هناك رسالة مهمَّة في هذه المناسبة توجّه إلى المجتمع الدوليّ، أو بعبارة أدق دعوة إصلاحيَّة حول تطوير الهياكل والأطر المؤسسية الدوليّة لمنع الإبادة المقبلة. وقد قدَّم المجتمع الدوليّ أكثر

من وعد رسميّ للتصدي للإبادة، لكن الإبادة لا تزال تحدث، وستحدث الآن وبعد حين وسط صمت دوليّ، وسياسات انتهازية، وأحيانًا بمشاركة وتواطؤ الدِّول الكبرى.

مواقف القوى الكبرى

قد يكون مثيرًا للدهشة أنَّ الولايات المتّحدة، التي قادت محاكمات نورمبرغ ضدَّ الإباديين النازيين لم تصادق على الاتفاق الدوليّ حول منع جرائم إبادة الأجناس حتّى بعد ما يقرب من 40 عامًا، إلى أنْ وقّع الرئيس ريغان في لحظة صحوة متأخرة على مشروع قانون اتفاقية الإبادة الجماعية. وبالرغم من ذلك لم تحرك الولايات المتّحدة ساكنًا لمنع إبادات جديدة، فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عدَّ المجتمع الدوليّ الإبادة الجماعيَّة جريمة ضدَّ الإنسانيّة. لكن في فجر القرن الحادي والعشرين كانت قد حدثت مرارًا وتكرارًا.

لماذا ظلَّت الإبادة الجماعيَّة تحدث في القرن الحادي والعشرين، ولماذا ظلَّت الولايات المتّحدة غير فعّالة في منعها وإيقافها بمجرد أنْ تحدث؟.

هذا سؤال مهم، لكي لا نضع بيضنا في سلة الدِّول الكبرى وسياساتها الحمائية، فهي من دون شكٍّ لن تقدِّم رد فعل لا يتطابق مع مصالحها الأنانية، لذا فإنَّ الصمت والنسيان سلوك نموذجي، هذا إذا ما تحدثنا عن سلوك سلبيّ في المراقبة والصمت.

أما إذا افترضنا مساهمتها الإيجابيَّة في الإبادة الجماعية، فذلك كفيل بجعلنا حذرين تمامًا في المراهنة على الهياكل الرسميَّة للسلطة، ويكفي في هذا السيّاق أنْ نطالع كتاب Andrew Wallis والمعنون بـ Silent Accomplice لكي تقشعر أبداننا من تفاصيل القصَّة غير المروية لدور فرنسا في الإبادة الجماعيَّة في رواندا، ولم يكن ذبح مليون من التوتسي على يد الهوتو في عامّ 1994 رمزًا لعجز المجتمع الدوليّ في مواجهة فظائع حقوق الإنسان فحسب. هذا المجتمع الدوليّ وفي مقدِّمته القوى السِّياسيَّة في

الغرب التي تتصدى لقيادة النظام الدوليّ، هذه القوى حسنة النيّة شكلًا، وغير الفعّالة في نهاية المطاف، كانت مساهمة في الإبادة، وأنَّ فرنسا قدَّمت سرًا الدعم العسكري والماليّ والدبلوماسي لمرتكبي الإبادة الجماعيَّة طوال الوقت.

فرنسا كانت حريصة على نفوذها في أفريقيا، حتّى لو كان ذلك يعني التواطؤ في الإبادة الجماعيَّة، حتّى أنَّ الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران قال ذات مرَّة: "في دول مثل هذا، فإنَّ الإبادة الجماعيَّة ليست مهمَّة جدًّا".

أضرب هذا المثال، لكي لا يعمل فشل المجتمع الدوليّ في التحرك لوقف الإبادة أو لمنعها، على تكسير صلابتنا، ولا يقتصر عدّم الاعتراف الدوليّ واسع النطاق بالإبادة الأرمنيَّة أجنحتنا، ولا تدفعنا سياسة الإنكار للتشاؤم وعدّم العمل على تحويل الذكرى إلى قوّة خلَّاقة لتحسين مستقبل البشرية. أصبح من المهم هذه اللحظة أنْ نتوقف للتفكير برسم خريطة طريق لإصلاح الأطر المؤسسية الدوليّة ودفعها إلى الإمام، وتخليصها من التفسير الانتقائي لمصالح الدِّول الكبرى.

هكذا نضع ذكرى الإبادة الجماعية في إطارها الإنسانيّ المناسب للتصدي لهذا الفشل، وعلى أنْ تدفعنا هذه الرغبة السامية والملحة في تجاوز إخفاقات فشل القادة الدوليّين لوقف الإبادة الجماعيَّة المروعة في البوسنة ورواندا ودارفور وسنجار. تجاوز يرتسم في محاولة إصلاح فشل المجتمع الدوليّ لمنع وقمع ومعاقبة الإبادة الجماعيَّة المعاصرة بتوفير تحليل متعدد المستويات عن تأثير الإبادة الجماعيَّة في بناء النظام العالمي، والعلاقة بين السِّياسة والأخلاق، ودور القوّة العسكرية في وقف الإبادة، ودعم المجتمع المدني العالمي الناشئ.

والأهم من كلِّ هذا أنْ تتحوّل المناسبة إلى فرصة لإطلاق تحالف دوليّ جديد، تحالف غير رسميّ، يقوده مثقفون وناشطون ورجال دين، سوف أطلق عليه تسمية ''تحالف الضحايا'' في مواجهة المصالح الدوليَّة ونخب البزنس الإثنوطائفيّ عبر العالم أو ''تحالف الناجين''، وهو تحالف يقوم على خطوات عملية يمكن للمجتمع الدوليّ اتخاذها لتحسين رد الفعل على الإبادة الجماعيَّة المقبلة.

الطبيعة المختلة للنظام الدولي

يظلُّ استمرار الإبادة الجماعيَّة في العالم الحديث دليلًا على الطبيعة المختلة للنظام الدوليّ المحكوم بمصالح ضيّقة لدِّول محدَّدة، وقد بدأت منذ صعود الاستعمار الذي أطلق أوّل عمليات إبادة للقضاء جسديًا السكان الأصليين أو من يخالفه ثقافيًّا، مؤسّسًا لسيّاق يصعب التخلص منه دون عمل جماعي دائب ودائم وتحالف عريض للضحايا من الشعوب.

وقد سبق للرئيس التشيكي ''فاتسلاف هافيل'' طرح فكرة عن ضرورة نقل ''السلطة'' إلى مستوى آخر. (إلى أعلى وإلى أسفل). وفي سيّاق تحذيره من خطر نموذج الدَّولة القوميَّة، أكَّد على أهمِّيَّة الحديث عن حكومة عالمية، أو مستوى أعلى من الحكم يتجاوز نموذج الدَّولة/الأمَّة. في نظر ''هافيل'' نقل السلطة السلمي كفيل بتوفير فرصة جديدة لتجاوز مساوئ الدَّولة القوميَّة، ونقل السلطة من الدَّولة القوميَّة إلى المنظمات العابرة للحدود الوطنيَّة والعالمية وإلى المؤسسات المتعددة في المجتمع المدني، أي أنَّها عملية نقل للسلطة إلى أسفل بتفعيل المجتمع المدني، وإلى أعلى عبر إيلاء المنظمات عابرة الحدود سلطة أكبر.

الدِّول في نظر ''هافيل'' ينبغي أنْ تكون كيانات أبسط وأكثر تحضرًا وليست موضوعًا للارتباط العاطفي، فالمجتمع الدوليّ وليس الدَّولة/ الأمَّة، ينبغي أنْ يكون موضع السيادة ومصدر وحامي الحقوق الإنسانيّة الأساسيَّة.

ولا شكَّ أنَّ ''هافيل'' كان يتحدث عن مقاربته لتأسيس مستوى جديد من السلطة الأكثر عدالة وهو يضع في ذهنه ما أدَّى إليه نموذج الدَّولة القوميَّة من إبادات بإسم التجانس القوميّ، منذ النموذج الأوّل المتمثِّل بالإبادة الأرمنيَّة التي ستظلُّ مثالًا على الإبادة الجماعيَّة التي تنظمها الدَّولة وارتباطها بظهور الهويَّة الحديثة والصلات الوثيقة بين القتل الجماعيّ للسكان المدنيين، وتعريف وتصنيف المجموعات والأفراد.

وإذا كانت الإبادة الأرمنيَّة حدَّدت سيّاق ظهور الدَّولة/الأمَّة على النمط الحديث وما ارتبط بها من إبادات من أجلِّ خلق نوع من التجانس القوميّ، فإنَّ ظهور داعش اليوم يحدِّد دور الفاعلين من غير الدِّول، أو بعبارة أخرى دور الفاعلين في عصر ما بعد الدَّولة/الأمَّة. لذا يفتح إحياء الذكرى المئوية للإبادة حواسنا على تحديات جديدة، وهي تحديات لا يمكن لنا مواجهتها بالاستمرار في سياسة الصمت والإنكار، بل لا بدَّ أنْ نجعل هذه الذكرى قوّة من أجلِّ مواجهة تحديات الحاضر والاستعداد بكلِّ قوانا لمنع الإبادة المقبلة.

من الإبادة الأرمنيَّة إلى الإبادة الإيزيديَّة

حين زرتُ ''سنجار'' بعد تحريرها من قبضة تنظيم داعش الأرهابي التقيتُ بشخصيات إيزيديَّة مختلفة، لا سيَّما من قرية ''كوجو''، أخذني شابٌّ ناجٍ في جولة داخل المدرسة التي جرى تجميع سكان القرية فيها، قبل تصنيفهم وإبادتهم من قِبل مقاتلي ''داعش''. كان يشير إلى صور عائلته بهدوء، وصورة أُختَيه اللتين قُتِلتَا، وكأنَّهما تنتميان إلى عالم آخر بعيد عن هذه القرية التي تحوّلت إلى متحف. بعدها، قادني إلى حقول القتل الجماعيّ، وأطلعني على المقابر الجماعيَّة التي جرى جمع الرفات المكدَّس فيها من قِبل فريق الأمم المتّحدة، والذي أرسل إلى العاصمة بغداد لأغراض الفحص والتعرف إلى هويّات الضحايا، في حين جُهِّزَت قبور للضحايا، لا تزال مفتوحة، وحمَل كلٌّ منها إسم شخص محدَّد، وذلك بانتظار دفن الجثث فيها بعد التعرف إليها عند نهاية فحص DNA.

أما المحظوظون من الإيزيديين/ات الذين عَلِموا بتقدُّم رايات داعش السُّود باتجاههم، وأُتيحت لهم فرصة الهرب، فقد سلكوا الطريق نحو ملجأ الإيزيديين الوحيد (الجبل). لقد رافقتُ صديقًا إيزيديًّا عبْر طريق إلى

جبل ”سنجار“، الذي سلكه الإيزيديون/ات هربًا من آلة القتل، تاركين كلّ ما يملكونه وراءهم. كانت الصور المنشورة عن هذه المسيرة المتّجهة إلى الجبال المنعزلة والجرداء، تذكّرنا بصُوَر المرحَّلين الأرمن في الدَّولة العثمانيَّة قبل مئة عامّ، والذين واجهوا الموت والعطش في صحراء سوريا وبلاد ما بين النهرين. لقد جرى ترحيل الأرمن قبل مئة عامّ من هضبة الأناضول باتجاه الجنوب الصحراوي المنبسط، لكنَّ الإيزيديّين هربوا باتجاه الشمال حيث سقفُ السماء العالية.

تطلعتُ إلى الجانب الآخر عبْر الحدود المحاذية لسوريا، حيث تربض مدن أخرى مدمَّرة على نحو يذكّرنا بالمدن التي اندرست آثارها في الحرب العالمية الثانية، مثل: ستالينغراد وبرلين. كانت حلب في سوريا تشبه سنجار في العراق، خرابها دالٌّ على إبادة المدن، فضلًا عن سكانها. وقبل أكثر من مئة عامّ جرى استقبال الأرمن (ضحايا الأمس) عبر هذه الحدود من قِبل الإيزيديين (ضحايا اليوم). وهناك ذكريات لا يمكن محوها عن هذا الفرار والاستقبال الجماعيّ، ولا تزال مغارات في جبل سنجار تحتوي على عظام الإيزيديين المختلطة بعظام الأرمن الفارين إلى الجبال العالية. وحدث أنْ التقيت صدفة في منزل أحد شيوخ سنجار، إيزيديًّا منحدرًا من تركيا، قدَّمت عائلته من الأرمن، ونالها ما نالهم من تطهير عرْقي وإبادة جماعيَّة.

مِن الشعوب التي تعرضت للإبادة في الشرق الأوسط خلال هذا القرن الدموي، الأرمن في تركيا. وقد تعرَّض السريان والكلدان والأشوريون والإيزيديون لإبادة مماثلة، لكن الحجم الديموغرافي الأكبر للضحايا مختصٌّ على ما يبدو بالأرمن، حسب ما تشير الأرقام في العراق بعد مئة عامّ، إلى الاستهداف الشرس والمتعمد للإيزيديين، أكثر من أيَّة أقليَّة أخرى، على الرغم من أنَّ المسيحيين والمسلمين الشِّيعة والأقليات الأخرى (مثل المسيحيين والشبك، حتّى المسلمين السُّنَّة الذين عارضوا تنظيم داعش)، عانوا أيضًا فظائع مروِّعة.

هذه ليست قصَّتنا وحدنا في الشرق الأوسط؛ فالنظام الدوليّ زاخر بجرائم مماثلة، والأوروبيون منذ القرن الخامس عشر إلى التاسع عشر طهَّروا الأرض من الشعوب الأصلية في أستراليا وأميركا الشمالية. وفي العقد الأوّل من القرن العشرين، قامت ألمانيا القيصرية بارتكاب الإبادة الجماعية للهيريرو في جنوب غرب أفريقيا. الأنظمة الشمولية مثل النازية الهتلرية والشيوعية الستالينية وماو الصينية، كانت في طليعة الأنظمة الإبادية. بعد نهاية الحرب الباردة أطلت العِرقيات برأسها مع إبادات جديدة، لا سيَّما بعد فشل الدَّولة التي ترك غيابها لأمراء الطوائف ومقاولي الهويّات، أنْ يتحوّلوا إلى زعامات مافيوية تستخدم التطهير العرّقي وسائل لتحقيق أهدافها. وقد أثبتت الأحداث الأخيرة بعد اجتياح داعش لسوريا والعراق، وقبْلها في يوغوسلافيا في البوسنة والهرسك عامّ 1995، وكوسوفو عامّ 1999، ورواندا عامّ 1994، ودارفور عامّ 2003، كيف أنْ تهديد الإبادة الجماعيَّة لا يزال قضيَّة رئيسة في السِّياسة العالمية.

أنْ يكون أكثر من ستين مليون شخص ضحايا الإبادة في القرن العشرين وحده، إضافة إلى الخسائر الأخيرة في البوسنة ورواندا، وبمعزل عن ضحايا دارفور وسوريا والعراق، فإنَّ هذا يستحقُّ منا وقفة لمنع تكرار المأساة. لذا، اعتقد أنَّنا وبعد مرور مئة عامّ، لا بدَّ –على الأقلِّ–من أنْ نشجِّع تدريس الإبادة الجماعيَّة لشعوبنا، وحثِّ الأجيال الجديدة على التعلم من أخطاء الماضي، ورفض أيَّة سياسة لتأويل الاختلافات على نحو يوفِّر المناخ الملائم لارتكاب الجرائم من قِبَل مقاولي الكراهيات.

لتعريف بالمؤلف:

د. سعد سلوم، أستاذ العلاقات الدولية في كلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية، من مؤسسي مبادرة الحوار المسيحي الإسلامي 2010، المجلس العراقي لحوار الإديان 2013، والمركز الوطني لمواجهة خطابات الكراهية 2018، ومعهد دراسات التنوع الديني 2019، ومعهد صحافة التنوع في العراق 2020. ويترأس مؤسسة مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية.

له 21 مؤلفا من أبرزها: الإبادة الجماعية في الشرق الأوسط: من نكبة فلسطين الى تدمير العراق2024, فرنسيس في أور: الجغرافية السياسية الجديدة للزيارات البابوية 2023، ديناميات الهوية: نهاية وإنبعاث التنوع في الشرق الأوسط (2023). وله دراسات اخرى منشورة باللغات الانكليزية والفرنسية والايطالية.

حاز على جوائز دولية من أبرزها: جائزة ستيفانوس الدولية في / أوسلو 2018، وجائزة ابن رشد للفكر الحر-برلين 2022 وجائزة مؤسسة zed الالمانية للتضامن الانساني والتي تسلمها في متحف الدولة في فرانكفورت بتاريخ ٣ اب ٢٠٢٣. كما حاز على جوائز أخرى من أبرزها: جائزة البطريركية الكلدانية عن كتابه (المسيحيون في العراق: التاريخ الشامل والتحديات الراهنة)، وجائزة كامل شياع لثقافة التنوير عن مجمل أعماله الفكرية.

نشر له مركز البيان مجموعة دراسات من أبرزها: الإبادة الجماعية مستمرة 2022. السياسة الخارجية العراقية ومجتمعات الدياسبورا 2024، أجراس الزوال (مذبحة كنيسة سيدة النجاة في ذكراها الرابعة عشرة) 2024. من روما الى أور: مسيرة البابا فرنسيس الإصلاحية وميراثه الروحي 2025.

لِدولةٍ فاعلةٍ ومجتمعٍ مُشارِك

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org